جري الحديث عن الزواج بالاجنبيات ، فقال احسان :

– هل تعرفون محمداً ؟

اجاب الحاضرون : نعم .

– وهل رأيتم زوجته ؟

فبدت من الحاضرين اصوات معجبة تنبيء بأنهم يعرفون ، ويدركون مصيبة محمد بزوجته .

وقال احسان (وهو الزم اصدقاء محمد لمحمد) : كلنا متفقون على ان محمداً ذكي ، فطن ، ناجح في اعماله كمحام ، وكسياسي ، ولكن ما يدهشنا هو انه تزوج بامرأة مثل زوجته . ونحن نفهم من يتزوج اجنبية لجمالها ، او لثقافتها ، او لفضائلها ..

وعلت من الحاضرين همهمة وتنحنح ، قطعها صوت احسان وهو يقول : ليس ما اقوله غيبة ، فقد جرى لي حديث بهذا الموضوع اكثر من مرة مع محمد ، وسألته هذا السؤال .

فقال احدهم : وبماذا اجابك ؟ وبدت على قسمات الحاضرين كلهم امارات الاهتمام والتشوق الى الجواب ، فابتسم احسان ابتسامة خفيفة وقال : قصة طويلة ... الا اني سأقصها عليكم لانها تلقي ضوءاً فريداً على احدى نواحي النفس الانسانية التي كثيراً ما يتراكم عليها صدأ الايام وغبار النسيان .

كلكم يعرف ان محمداً متحفظ في كلامه واعماله ، كتوم لاسرار حياته ، الماضية منها والحاضرة .

وكل الناس يعرفون انه حصل على شهادة المحاماة ، ولكن من منهم يعلم اين درس القانون واين تخرج ؟

وصداقتي لمحمد قديمة جداً ، تعود الى يوم كنا طفلين ندرج في حارة الجبيلة ، ونلعب في الازقة بنوى المشمش والتمر ، نتراكض حفاة ونتعاجر مع صبيان الحارات الاخرى ، او نتسلى بقذف الترامواي بالحجارة من اعالي مقبرة الجبيلة . وكم لنا من ايام مشهودة ضد رجال الشرطة الذين كانوا يداهمون المقبرة لانقاذ الترامواي من شر احجارنا التي لا تخطيء نوافذه ، وضد حراس الليل الذين كادوا ان يفقدوا عقولهم لكثرة ما كسرنا من فوانيس ومصابيح . وكان ذلك قبل ان تستبدل فوانيس البترول بمصابيح الكهرباء .

ثم فرقت بيننا الايام ، وذهبت انا ادرس في باريس . ولست ادري كيف صنع محمد ، الا ان التقادير – ومنحة حكومية – ساقته الى لندن حيث درس وتخرج في الحقوق ونال لقب B. LL .

وعدنا الى الوطن بشهاداتنا وبدأنا حياتنا العملية كل في الحقل الذي اختص به . ولم تعتم الصدف ان جمعت بين محمد وبيني فاعدنا اواصر الصداقة القديمة . وكنت ازوره كل يوم تقريباً وتوطدت بيننا الالفة الى حد كبير ، بحيث لم اكن لاحبس عنه شيئاً من شؤوني ولم يكن ليخفي عني شيئاً مما يجول في خاطره .

وذات يوم ، كنا جالسين في مكتبه نتحدث ، وجرنا الحديث الى الكلام عن العائلة والعلاقات العائلية ، فاذا بي انطق بسؤال كان يدور على لساني من زمن طويل ، فقلت :

– قل لي – بالله – ولا تغضب ، كيف تزوجت برندا ؟ (وهو اسم زوجته) .

فقال : – لا تخش عتباً مني . وصحح سؤالك فقل : لم تزوجت برندا ؟ وها انا سأقص عليك ما لم اقصه لاحد قبلك .

ومر محمد بيده على جبينه في حركة مألوفة له ، كلما شاء ان يتذكر امراً وبدأ قصته :

حين ذهبت الى لندن اول مرة ، عرفت معنى كلمات العزلة والوحشة والانفراد . كنت هنا – في مسقط رأسي – العن الايام التي اولدتني في بلد ليس فيه ما يبل الغلة ويريح النفس من علاقات انسانية . او بالاحرى من علاقات بين الرجال والنساء . ولا اعني العلاقات الجنسية الصرفة ، التي لا تحل مشكلاً ، بل تلك الروابط التي تنشأ عن النظر والحديث والمصاحبة فتلطف الجو وتهدىء الاعصاب ، فينصرف الانسان الى عمل مجد له ولغيره ، فلا يفكر طول يومه في شيء واحد : كيف السبيل الى ظل وماء من وجود انثى ؟ كيف المخرج من جهنم الوحدة ؟ كيف ...؟

والوحدة في بلادنا جهنم ، الا انها في لندن الف جهنم . اذ اننا في بلادنا تكاد لا تكون لنا علاقة حديث او صداقة مع امرأة حتى كاد الوضع ان يكون طبيعياً ، الا ثورات من حين الى آخر ، تجفف الدم وتحطم الاعصاب وتطحن العظم ... او تقذف بواحدنا الى اول مومس في سريرها مكان ، ثم يعود وفي نفسه براكين من الغثيان والحقد على نفسه وعلى كل ما تقع عليه عيناه . اما في لندن ، فالنساء لا اكثر منهن ، تلاقيهن في الجامعة وفي البيت وفي الشارع . ولكن هذه الكثرة غرارة . اذ ان الانكليزيات – على قربهن من اليد – ابعد من السماك عن القلب . فانك تعاشر الانكليزية وتذهب في عشرتها الى ابعد الحدود ، ويخيل اليك في بعض اللحظات الخاطفة انها تتخلى عن البرود الذي ورثته عن مئات السنين ... ولكن هذا ليس الا سراباً . فانك لا تبلغ – مهما فعلت – الحد الادنى من الصحبة الانسانية ، ولا تحس بالدفء يملأ نفسك ويقشع عنها ضباب الوحشة . فصاحبتك في واد وانت في واد .. او هذا على الاقل ما يقوله الذين عرفوا الكثيرات منهن . اما انا فحالي تختلف عن ذلك .

وصلت لندن ، اكبر مدينة في العالم ، مدينة الملايين من البشر ، والنساء الثلاث لكل رجل ، حسب الاحصاءات ، وانا اخرج لاول مرة من بلدي ، فكأني بدوي من عنزة قذف فوراً الى مدينة كبيروت مثلاً ، مع ضرب هذا الفارق بمئة او بألف . ونزلت في بيت لدى سيدة انكليزية عجوز . ومن لم ينزل مثل هذه البيوت لا يسعه ان يتصور مدى السأم والضجر والانقباض الذي تنضح به وجوه ساكنيها من العوانس والعجائز والضباط المتقاعدين وصغار الموظفين ، وما ينبعث من ملل من الاثاث ذاته . اما الطعام ، فان ذكره الآن ، بعد عشرين سنة واكثر ، يقلب معدتي رأساً على عقب .

وضمت قدمي في لندن في اوائل تشرين الثاني ، فوجدتها مجللة بالضباب الاسود ، كأنها ملفوفة بحرام مبلل بالماء المثلج . وثارت طبيعتي التي الفت الشمس ، الا ان الضباب لم يأبه لثورتي ، ولم البث ان انطويت على نفسي في حال تشبه السوداء . ولم تكن دراسة الحقوق الجافة

لتبعث في حيـــاتي ما ينقصها من حبور وفرح . ومن يجمع بين دراسة الحقوق وشتاء لندن فقـــد عرف جحيم الدنيا وجنبه الله جحـــيم الآخرة . وقضيت ستة شهور ما زالت ذكراها تمر في منامي ، فاستيقظ مذعوراً .

وفي اوائل نيسان ، اخذ النرجس يفتح في بساتين لندن ، وعـــلى مروجها ، وان كنت ، على بعد الزمن ، ما زلت على دهشتي الاولى : كيف يمكن لزهر ، ايا كان نوعه ان يزهر في لندن بعد مثل ذلك الشتاء؟ واخذت الشمس تبدو من خلال الضباب والغيوم مرة كل اسبوع ، فتعيـــد الى نفسي بعض روحها وحياتهـــا . واوشك الربيع ان ينتهي ولم احس بعد بدفء عظـــامي ولم اقلع ثياب الشتاء . حتى كان يوم الثـــاني من حزيران . . لا تقاطعني . ستفهم بعد قليل لمَ احفظ التاريخ حتى الآن .

في ذلك اليوم من حزيران افقت في غرفتي الصغيرة المكتظة بالاثاث الانكليزي البحت الذي كأنه صمم ليزيد العتمة عتمة ويمتص النور امتصاصاً . ونظرت من النافذة فاذا بشمس صاحية كأنها ذوب الذهب تغمر الشارع ، وتضفي على البيوت المسودة غلالة من النور . فعولت على الخروج بدون معطف على الرغم من تحذير صاحبة البيت العجوز . وقلت : لأن امرض في الشمس خير من ان لا أحس بها تسري في ظهري وتسيل فيه دافئة حبيبة .

وكانت لي عادة ، ربما كانت اجل ما خلفته لندن في نفسي من ذكريات ، وهي عادة الخروج من المدرسة ظهراً ، فاتغدى في مطعم فرنسي صغير قرب شارع اكسفورد ثم اخرج منه الى الشارع اذرعه طولاً وعرضاً ، واغوص في لجة من الناس ، واحاول ان انسى وحدتي وانفرادي في هذا البحر من السابلة من كل جنس وعرق .

وكان ذلك اليوم من حزيران يوماً مجيداً حقاً ، تلمع شمسه عـــلى شارع اكسفورد ، وتنعكس في واجهات المخازن ، وعلى زجاج السيارات والباحات ، فتملأ النفس حبوراً حتى تكاد ان تنسى انها في لندن وان المطر قاب قوسين أو ادنى .

ولست ادري اذا كنت لاحظت — مثل ما لاحظت انا دوماً — ان شعاعاً من الشمس يكفي لمضاعفة جمال الاشياء ، بل حتى ولستر قبحهـــا عن الانظار . فان بيوت لندن المسودة من الدخان ، المتداعية للسقوط ، تلبس ثوباً قشيباً حين تنيرها الشمس . وكذلك الشوارع ، والنساء . بلى . . الشمس للمرأة كالعصا السحرية التي تحدثنا عنها قصص الاطفال ، تزيدهـــا جمالاً اذا كانت جميلة ، وتعطي دمامتها اذا كانت دميمة ، حتى ان العين لا تملك الا ان ترى فيها شيئاً جميلاً ، قد يكون بريق الشمس على شعرها ، او انعكاس النور في عينيها ، او — وهو كذلك صحيح — ذبيب الدفء في عروق الناظر نفسه .

سرت في شارع اكسفورد ، انظر الى كل شيء دون ان ارى شيئاً بعينه : الى الحوانيت والسيـــارات والهنود والزنوج ، والانكليز ، واسمع باذن لاهية رطانة الانكليزية ورنة اللغات الاخرى . كنت اسير على الارض سير من يمشي على السحاب ، كنت في حالة من السعادة صوفيـــة .

وفجأة ، بدأ قلبي يدق دقاً عنيفاً مؤلماً ، وشمرت بركبتي تتراخـــيان وبيد تقبض على معدتي وتعصرها عصراً . وتداركت انفاسي سراعاً دون سبب ظاهر لي . ونظرت حولي آلياً . فاذا امامي سبب انفعالي ، سجـــله ضميري قبل ان يدركه عقلي .

نظرت فاذا بفتاة امامي ، تتثنى ماشية مشية ناعمة كأنها ترقص عـــلى دقات قلبي .. واحسست بريقي يجف وبطعم قريب للمرارة يملأ فمي فعجلت بخطاي كي ارى فتاتي من امام . ولست ادري هل احست بشيء مما احسست به ام هل تداعت افكارها لما جال في نفسي ، فالتفتت تنظر الي . وما زلت اذكر تلك النظرة التي رمتني بها عينان خضراوان الى الزرقة ، تحنو عليها رموش سود ، كصفصاف يضم نبعاً نميراً ، ومن فوقها حاجبـــان كالفحم ، يحيطان بهما كأبدع اطار لاروع لوحة .

تطلعت اليها — وتطلعت الي برهة ، خيل لي انها استمرت ساعة ، دون ان ارى سوى هاتين العينين . وبدا عليها مثل الدهشة لحملقتي بها ، بهذه الطريقة البعيدة عن الطريقة الانكليزية . وكأن نظراتي الحائرة النهمة اثارت فيها بعض المرح فتبسمت ، فكأنما افترت عن نور ونار .

وسارت وسرت الى جانبها كالتائه ، وزززتها حتى كان شعرها يداعب وجهي ، وكنت في اثناء ذلك كالمسحور . واجتازت الشارع الى الرصيف الثاني فلحقت بها وكدت ادهس اكثر من مرة ، ولا ابالي . والشمس في هذا كله تصب عليها فيضاً من النور الدافيء الجواد ، كذلك النور الذي

يشع حول المسيح في اللوحات الايطالية القديمة . ووصلت فتاتي الى حانوت دخلته . الا انها قبل ان تتوارى فيه ، التفتت الي وجادت علي بابتسامة اخرى ، زادتني سكراً على سكر .

وتوالت الايام ، والشمس كل يوم اكثر دفئاً وضياء ، مما لم تشهد لندن له مثيلاً الا القليل . وكنت في ظهر كل يوم آتي الحانوت واقف امامه انتظر ان تخرج فتاتي ، واظل ساعة او اكثر منتصباً كالعمود ازاء واجهة الحانوت انظر باهتمام ظاهر الى ما عرض فيها من السلع . ولو كان الحانوت عادياً لهان الامر ، فانه كان مختصاً بالاشياء النسائية دون سواها . ولا شك في ان منظر رجل يحملق ساعة او اكثر في قمصان النساء وغير قمصانهن يثير الدهشة بل التساؤل في اية مدينة ، فكيف بلندن المتزمتة المتحرجة ؟ ولم اكن ابالي بنظرات التعجب يرسلها الي المارون بي ، ولا بنظرات الاستياء من النساء الداخلات الخارجات ، فلا اتزحزح عن مكاني حتى تخرج فتاتي لتشتري شيئاً من حانوت اخر فاتبعها كظلها واخذ اجري آخر الامر ابتسامة افتات بها حتى اليوم التالي .

اراك تضحك ، وما اراك الا قائلاً في نفسك : ما هذا ؟ الا انني اريدك ان لا تنسى وضعي في ذلك الحين ، ومن اين خرجت لاذهب الى لندن ، وحالتي النفسية وانكماشي .. ولا تنس الشمس وميلا طبيعياً في الى الباس الاشياء ثوباً مثالياً خيالياً . ولا تنس ان مئات السنين من الضغط والحرمان الموروثين تنسمت في تلك الفتاة متنفساً ومنهلاً . والواقع اني جعلت من تلك الفتاة عروس احلامي وشريكة وحدتي ومؤنسة ليالي الطويلة التي كنت افضيها احاول هضم مواد الحقوق الثقيلة المكربة .

وقدمت الامتحان ، ونجحت بتفوق . ودخل في روعي — وللحب الاعيب عجيبة — ان لفتاتي ضلعاً كبيراً في نجاحي . الم تكن معي في تحضير الامتحان ؟ الم تسهل لي سهر الليالي الطويلة المزعجة ؟ الم تكن ابتسامتها الاكسير الذي يهبني القوة والجلد على العمل المضني ؟

ويوم اخذت النتيجة ، عولت على امر عظيم ، فذهبت الى شارع اكسفورد ، واتخذت مكاني امام الدكان ، في الشمس . وطال وقوفي وحميت الشمس علي ، وتصبب العرق من جبيني وانا واقف لا اتحرك . واحسست بحركة في داخل الحانوت فاذا بالبائعات يتضاحكن ويشرن الي فيما بينهن ، فتصنعت عدم الاهتمام . وكأنني لا اري شيئاً . ومرت دقائق . فاذا بفتاتي تخرج وتنظر الي نظرة الغاضب وتمر الى جانبي كأنها تمر الى جانب حجر او خشبة .

واسقط في يدي ، وكاد مشروعي ان يتبخر . ولكني جمعت شجاعتي ، وتبعت فتاتي ، وقلبي يدق كأول مرة رأيتها فيها ، وركبتاي تكادان تخونني — وذلك الالم في معدتي .. والجفاف في حلقي .

وسرت وراءها في الشارع المزدحم . حتى لاحت فرجة في بحر السابلة فتقدمت منها وقلت لها بصوت ابح :

— صباح الخير .

ولم اقل بعدها شيئاً فقد انعقل لساني دهشة من جرأتي العظيمة .

واذا بها — يا فرحتي — تلتفت الي وتجيب مبتسمة :

— انك متأخر بعض الشيء على ما اظن . لقد كادت الساعة ان تكون الثانية بعد الظهر . اي صباح هذا ؟

وعاودتني شجاعتي فقلت في نفس واحد :

— لقد نجحت بفضلك .

فنظرت الي باستغراب ، كأني كلمتها الصينية ، وقالت كمن يخاطب معتوهاً ، او طفلاً :

— تهاني الخالصة .

وحاولت مستميتاً ان اجد ما اتابع به الحديث فلم استطع الا القول :

— لقد نجحت في فحص الحقوق بفضلك . فاجابتني ، وقد بدا لي على وجهها انها تحاول ان تفهم فحوى ما اقول ، فلا يمكنها تماماً :

— فحص الحقوق .. عظيم ؟ ولكن اين فضلي ؟

فقلت لنفسي : هذه فرصتك فلا تفوتها . وانطلقت في حديث طويل متشابك الاطراف ، معقد ، فيه الشمس وحزيران وشارع اكسفورد وامتحان الحقوق والصفصاف الحاني على النبع .

واستمعت الي بجد مصطنع ووقار كاذب ، وهي تضبط نفسها كيلا تضحك ، فلا يسمعها الا الابتسام ، حتى قلت لها :

— هل لك ان تقبلي دعوتي للعشاء هذا المساء ؟

— ولماذا ؟

— لاعبر لك عن شكري لكل ما فعلته من اجلي .

فضحكت هذه المرة وقالت :

— حسناً . اقبل ، ولعلك تفسر لي سر وقوفك امام الدكان ساعات منذ عشرة ايام ، فلقد شغل عملك هذا اذهان البائعات ، وحتى اذهان اصحاب المحل .

***

وتوقف احمد عن الحديث ، وطافت على شفتيه ابتسامة غامضة ، كأنه عاد يعيش تلك الدقائق من حياته ، ثم عاد الي وقال :

« ولست بمزعجك بالتفاصيل . فلقد استمرت صحبتنا ، وتطورت ، وتزوجت برندا بعد ان انهيت دراستي وعدت بها معي وعشنا ، وما زلنا ، اياماً وسنوات سعيدة رغدة ، الا ان الطعام والمناخ والاولاد قد افقدت برندا الكثير من جمالها ، فلم تعد فتاة العشرين ربيعاً التي عرفت ...

وهنا تحسس محمد صلعته وقال ساهماً :

— ومن منا ظل على شبابه .. ثم استطرد يقول :

— ولا شك ان الناس يتساءلون في بعض الاحيان : كيف تزوج محمد مثل هذه المرأة ؟ الا اني اعرف لماذا تزوجتها ولماذا ما زلت احبها ، وكلما رايتها احست بقلبي يدق وبفمي يجف وبيد تعصر معدتي ، وبشمس حزيران تملأ رأسي نوراً وموسيقى .. انها شبابي المحروم المعطش الذي لاقى نبعاً يرتوي منه وانساناً ينقذه من وحدته وعزلته ، ويجعل من حياته سكينة دائمة وطمأنينة لا تبرح .

***

وقال احسان : «ولم استطع الا ان افهم قول محمد ، واكبر فيه — بل واحسده — على هذه العاطفة الصادقة التي لم ينل منها كر الايام والليالي واعجب باخلاصه لشبابه وذكريات شبابه ، لا يخونها ولا ينساها . وعلى انه ادرك السعادة وانه لن يتخلى عنها ولو اجمع البشر على انتقاده والتقول عليه .»

لندن — **صباح محيي الدين**